

تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وأراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقراءها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحليين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

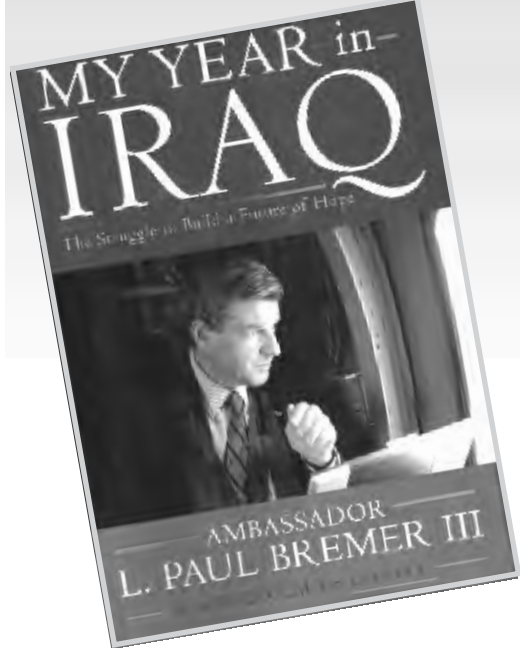
ستيني في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف / بول بريمر
ترجمة / د. عابد اسماعيل

(الحلقة الثامنة)

الأغلبية الساحقة من الشعب العراقي كانت فرحة للتخلص من صدام وأعوامه، ولكن قلة قليلة كانت سعيدة بوجود جيش أجنبي، غير مسلم، يحتل بلادها. ومن ثم، أضاف كلاي، مع احتلال الجيش الأحمر السوفييتي لأوروبا الشرقية والجزر الشمالية لليابان، فإن البلدان التي هُزمتها في الحرب العالمية الثانية كان لديها حافز قوي للتعاون معنا- لا أحد كان يريد للجيش الأمريكي أن يستبدك بالجيش الأحمر.



شابة محبوبة، إيرلندية من بوسطن، ذات شعر أحمر وضحكة مرحة. وهي أيضاً موظفة لامة في وزارة الخارجية، حازت على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة أكسفورد، وألقت كتابين حظيا باستقبال جيد، عن دور العقوبات في عصر الإرهاب الدولي.

رومان مارتينيز، أمريكي شاب، من أصل كوبي، شب في نيويورك، وتلقى تعليمه في هارفارد. كان دائماً يبدو مستعداً لإطلاق تعليق ساخر يعش فيه أكثر الجلسات تجهماً. وكان رومان قد أمضى شهراً في مكتب الخطط الخاصة في البيتأغون، يعمل على بنية الحكومة العراقية الجديدة، في 2002. ومثل ميغان، يتحلى بعقل خلاق وبديهة سريعة، وكان مطلعاً بشكل جيد على أوامر حل حزب البعث.

كان رايمان كروكر يسمي هذين المساعدين الشابين "بالعقلين"، وكنت متمتناً لوجودهما معي في الفريق. "رايمان" قلت، "جميعاً قرأ النص مرات عديدة. هل تعتقدون، أيها السادة، أن المرسوم يحقق هدفه؟"

مرة أخرى راح كل منا يراجع الفقرات الست الموجزة للمرسوم.

ويعد التذكير بأن الجنرال فرانكس كان قد "حظر حزب البعث في العراق"، في أواسط نيسان، نفذ المرسوم هذا الإعلان، "من خلال القضاء على بنية الحزب، وعزل قيادته من مواقع السلطة والمسؤولية في المجتمع العراقي". وكانت الغاية هي التأكد بأن الحكومة الجديدة المثلثة للعراق لن



يهددها البعثيون، من خلال العودة إلى السلطة. الفقرتان التاليتان كانتا تبتنان أعضاء حزب البعث الذين "عزلوا من مناصبهم ومنعوا من التوظيف مستقبلاً في القطاع العام". وهؤلاء يضمون المراتب الأربع العليا، المعروفة رسمياً باسم "أعضاء القيادة الحزبية". فضلاً عن أن هؤلاء الأعضاء سيتم تقييمهم في ضوء سلوكهم الإجرامي أو التهديدات الأمنية للتحالف، ويوقفون أو يوضعون تحت الإقامة الجبرية إذا تطلب الأمر ذلك.

رقم واحد الصادر عن سلطة التحالف المؤقتة، "حل البعث واجتثاثه من المجتمع العراقي". وضع رايمان النسخة العربية الرسمية بمحاذاة النص الإنكليزي ليتأكد بأن كل كلمة تمت ترجمتها بشكل مناسب.

البيت الأبيض، وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ثلاثتهم وقعوا على هذا، قلت شارحاً، "لماذا دعونا نقرأ للمرة الأخيرة، وإذا لم يكن هناك خطأ ما كبير في الترجمة، سوف أوقعه".

لاحظت أن ميغان، التي كانت دائماً دقيقة، قد أضاعت نسختها ببعض الخطوط الملونة، حيث سجلت بأناقة بعض النقاط على الهامش. كانت امرأة

"... حتى وإن تسبب تنفيذها بمنغص إداري".

كان حزب البعث يتباهى بأنه يملك أكثر من مليوني عضو. العديد من الناس انضموا للحزب لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة للحصول على عمل، إما كمعلم أو كموظف مدني، أو لأن الشخص أو العضو يجبر على ذلك. ليس لقوات التحالف أية مشكلة مع هؤلاء.

كان اهتمامنا محصوراً بالمستويات الأربعة العليا لعضوية الحزب، والتي أقصاها المرسوم رسمياً عن الحياة العامة. وهذه تضم الأنصار البعثيين الذين كانوا، بفضل مواقعهم السلطوية في النظام، أدوات صدام القمعية الفاعلة. وقد قدر جهاز مخابراتنا السري أن هؤلاء يشكلون نسبة واحد بالمئة من أعضاء الحزب أو ما يربو على 20 ألفاً، غالبيتهم الساحقة من العرب السنة.

لكنني أدركت أن "المنغص الإداري" الذي ذكره رامسفيلد يمكن أن يثبت أكثر من مصدر للقلق. كان كبار البعثيين يدخلون في صلب كل قيادة وزارة عراقية أو منظمة عسكرية. إن منعه من ممارسة وظائفهم العامة، سيجعل إدارة الحكومة أكثر صعوبة، من جهة أخرى، أراح بالي أن أعرف بأن "التكنوقراط"، غير المسييين، هم، في العادة، من يجعلون أية منظمة تعمل وتقف على قدميها.

كنت قد قلت لفيث بأنني سأناقش توقيت المرسوم مع رايمان كروكر، ومع فريق الحكم في سلطة التحالف المؤقتة- المسؤولة عن إرشاد العراق الحر إلى حكم نفسه بنفسه- بعدما أغانر إلى بغداد. وقد جعلت التسريبات إلى التاييمز المسألة ملحّة وعاجلة.

قابلت رايمان، وخلفه المعين، سكوت كارينتر- نائب مساعد وزير الخارجية للشؤون الإنسانية- واثنين من مسؤولينا في السلطة، ميغان أوسيليفان ورومان مارتينيز، لاحقاً ذلك المساء، من يوم الخميس.

كان مكثبي الضيق المواجه لخلفية القصر مزدهماً وحراراً، مع وجود خمسة أشخاص داخله، كان كل منا يحمل نسخة من الأمر

المخابرات الذين يرتدون أقمعة ديبلوماسيين في الخارج- بأن يقرأوا كتاب هتلر (كفاخي).

في التاسع من أيار، وهو اليوم الأخير من تحضيراتي في البيتأغون، كان دون رامسفيلد قد سلمني أوامر التحرك ضمن مذكرة مكتوبة، ومن بين التعليمات الأخرى، أكدت مذكرة رامسفيلد بوجه خاص: أن التحالف سيعارض بقوة حملة أوامر صدام حسين القدامى- حزب البعث، فدائياً صدام، مقاتلون غير نظاميين وقصوا في وجه قواتنا أثناء زحفها إلى بغداد). إنج. ونوضح أن قوات التحالف سوف تجتث بقايا نظام صدام.

في ذلك الصباح، كان مساعد وزير الدفاع دوغلاس فيث قد عرض علي مسودة أمر يقضي "بحل البعث واجتثاثه من المجتمع العراقي". وقد فهم جيداً أهمية هذا المرسوم. "علينا أن نظهر لكل العراقيين

بأننا جادون بشأن بناء عراق جديد. وهذا يعني أن أدوات صدام القمعية لا دور لها في هذه الأمة الجديدة". وبالرغم من أنه لم يكن هناك ذكر في المسودة للجيش النظامي، كنت أعلم أن وولت سلوكومي، كبير مستشاري قوات التحالف لشؤون الأمن والدفاع، كان يناقش مستقبل الجيش مع فيث، خاصة أنه بات واضحاً أن هذه القوة قد انشقت واختفت.

تخصّصت المرسوم. كان الجنرال فرانكس قد حظر لتوه حزب البعث في "رسالة الحرية" بتاريخ، ١٦ نيسان. كانت غاية هذا الأمر الجديد، الحاسم، هي تخليص الحكومة العراقية من زمرة قليلة من المؤمنين الحقيقيين، على رأس الحزب، ومن أولئك الذين ارتكبوا جرائم باسمه، وتنظيف البلاد من أيديولوجيا حزب البعث. "تفكر بأن نجعل جي يصدر الأمر اليوم"، قال فيث.

"انتظر لحظة". قلت. "وافق أن هذه خطوة هامة، ولأنها كذلك أقتصر أن نتنظر حتى أصل إلى هناك".

وافق فيث على التأجيل، لكنه شجعتني على إصدار المرسوم حالاً أصل إلى بغداد. وأكد على نقطة أخرى، في مذكرة رامسفيلد، تبين أن المرسوم يجب أن ينفذ

والتملق، في الوقت الذي كان يدير فيه اقتصاداً حكومياً فاسداً.

كان مطلوباً من أعضاء حزب البعث حضور اجتماعات عقائدية أسبوعية حيث كان يترتب عليهم استذكار آخر شعارات الحزب التي تمتدح صدام، وأولاده، وأصدقاء عائلة صدام. ويتوجب على الأعضاء أن يجندوا الأطفال، أولاً كمخبرين (والعديد منهم خان حتى عائلته) ومن ثم كأعضاء في الحزب. وكما هو الحال في ألمانيا النازية وروسيا الستالينية، كان مطلوباً من أعضاء الحزب التجسس على عائلاتهم، أصدقائهم، جيرانهم- وزملائهم البعثيين. هذه الممارسات المهينة، مضافاً إليها بطش صدام وأولاده، خلقت مناخاً من الخوف المسيطر وفقدان الثقة في عموم المجتمع العراقي.

ومثل أدولف هتلر، كان صدام مقتنعاً بأن القدر قد اختاره للعظمة. كان يؤمن بهذه المهمة الجليلة بكل قوة حتى أنه أمر قادة البعث- بمن في ذلك المناء من ضباط



وبالرغم من أن ألمانيا والعراق أمتان شابتان نسبياً، إلا أن توحيد ألمانيا تحقق من خلال الجهود التي قام بها الألمان أنفسهم، خاصة الدور الذي لعبه القائد الألماني من القرن التاسع عشر، المستشار أوتو فون بسمارك. وعلى الرغم من وجود خلافات دينية بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي، إلا أن الألمان كانوا يتحدثون لغة واحدة، ويملكون ثقافة مشتركة.

ثم أشار هيوم إلى اختلاف الحالة مع العراق الحديث.

بعد الحرب العالمية الأولى، استجمع البريطانيون العراق من أقاليم ثلاثة، تابعة للإمبراطورية العثمانية السابقة، التي كانت حليفاً لألمانيا الإمبريالية. وشكل سكان العراق، على مختلف مشاربهم، خليطاً من اختلافات حادة، عرقية ومذهبية. في الجنوب، الأغلبية من المسلمين العرب الشيعة، تربطهم أواصر دينية قوية مع إيران. الأقلية من العرب السنة، التي تؤلف حوالي عشرين بالمئة من السكان، تجمعها أواصر مع قبائل وعشائر العراق الأوسط. ومنذ مئات السنين، حكم السنة العراق، أولاً، في ظل حكم الأتراك العثمانيين، ولاحقاً تحت حكم البعثيين. الأتراك والتركماني، وهم من المسلمين السنة، لكنهم ليسوا عرباً، سيطروا على الشمال. وثمة هناك أقليات أخرى مثل المسيحيين والأيزيديين.

تولى البعثيون السلطة في العراق، عبر انقلاب، عام ١٩٦٨، سحق صدام حسين خصومه الحزبيين، بلا رحمة، وانفرد شخصياً بالسيطرة على الدولة. حين تمت الإطاحة به في نيسان، 2003، كان يعثو صدام قد أمضوا في السلطة ثلاثة أضعاف المدة التي أمضاها هتلر. كانت آثار حكمه الديكتاتوري الفاشم راسخة عميقاً في النسيج النفسي والأخلاقي للمجتمع العراقي.

كما أن اقتصاد كل من هاتين الدولتين المحتلتين يظهر تناقضاً. قبل قرن تقريباً من الحرب العالمية الأولى، كانت ألمانيا قد بنت قاعدة صناعية قوية ومتنوعة. والتعالي السريع للصناعة الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى، يظهر مدى قوتها وحيويتها. على الأقل، حتى أواسط ١٩٣٠، كانت ألمانيا تتمتع باقتصاد قطاع خاص منمتش، ومتحرر نسبياً من سيطرة الدولة.

أما العراق فكان يعتمد بشكل كلي تقريباً على صناعة النفط المملوكة للدولة. إن نسخة صدام الشريفة من الاشتراكية ساهمت إلى حد كبير بتقويض الطبقة الوسطى، والقطاع الخاص، في البلاد.

لقد نسخ صدام ممارسة جوزيف ستالين في إعادة التوطين الإجباري للسكان، مما أدى إلى إثارة التوترات الدينية والعرقية الهاجعة. كان العراقيون قد وطنوا آلاف السنة العرب في الأراضي الكردية، خاصة داخل وحول المدينة الشمالية الحورية، كركوك.

ومن زوايا عدة، كان حزب البعث الاشتراكي في العراق، بمثابة ردة رجعية إلى "مذاهب" القرن العشرين الشمولية.

غير أن كبار البعثيين العراقيين كانوا في طريقهم إلى الانقراض رسمياً.

على مدى ثلاثة عقود متتالية، مارس حزب البعث سياسة الإخضاع للعراق. ومثل النازيين والشيوعيين السوفيت، كان هذا الحزب- الذي يسيطر عليه صدام والعرب السنة- قد استحوذ، ليس فقط على الحياة السياسية، بل على المجتمع العراقي برمته، عبر مزيج من إرهاب دولة البوليس،